الله ولا الجهاد في سبيل الله قال ولا الجهاد في سبيل الله تضرب بسيفك
حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع وخرج
النسائي والترمذي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم سئل أي العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة قال الذاكرون
الله كثيرا قال قلت ومن الغازي في سبيل الله قال لو ضرب بسيفه في الكفا
ر والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله أفضل درجة
منه وخرج الترمذي والنسائي وابن أبي شيبة عن عبد الله بن بسر
أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله إن شرائع الإ
سلام قد كثرت علي فأنبئني بأمر أتشبث به قال لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله
إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من الدليل على شرف الذكر وفضله
ورفيع درجته ولذلك جعله أهل المعرفة وسيلة إلى الله تعالى ولازموه
وحافظوا عليه فإن قلت لم كانت أعمال البر كلها دون الجهاد وكان
الجهاد وسائر أعمال البر دون الذكر فالجواب أن أعمال البر كلها إنما
مقصودها الأعظم تصفية النفس وتطهيرها بإتلافها عن مألوفاتها
وإخراجها عن هواها حتى تبقى بعد لها خالية عن التبعات التي تنشأ من
تعلقاتها فما كان من الأعمال أقرب لهذا المعنى وأعون عليه فهو أفضل
مع أن علل النفس منها ما يظهر أوائل أمره ومنها ما هو أخفى من دبيب
النمل وأعمال البر مسلطة على محو هذه العلل وذهاب آثارها بطهارة
النفس لكن أعمال البر متفاوتة في أحكام هذه الطهارة فمنها ما
يذهب من العلل ما ظهر دون ما خفي ومنها ما يذهب الظاهر والخفي دون الأثر
ومنها ما يذهب الظاهر والخفي وأثرهما حتى تعود النفس إلى نهاية
طهارتها مطمئنة بها ولا شك أن الجهاد الحقيقي مؤذن بإتلاف
النفس من مألوفها وإخراجها عن عالم الحس إلى عالم الغيب لا يخفى
لا يتعدى ذلك عن العلل الخفية المعنوية بل الإبقاء على النفس بعض أوهامها
والنفس تتحمل المشاق العظام مع الإبقاء عليها ولو بعض أوهامها
وبهذه العبارة فهم الجهاد عن الاتصاف بفضيلة الذكر لأن الذكر إذا استعمل
على طريقه المعروف ومهيعه المألوف مبنيا على قواعد الشرع

الشرع محفوظا من خطرات الزيغ فإنه لا يدع من علل النفس شاذة ولا فاذة ولا
أثرا إلا أتى على ذلك بالإذهاب حتى تبلغ النفس غاية طهارتها ولا يبقى
عندها التفات لغير الله تعالى كل ذلك لما عن علم وذوق ولهذا سمي
طريق الذكر الموصل لخلاص النفس جهادا أكبر وسمي الضرب بالسيوف
والطعن بالرماح جهادا أصغر ولما في طريق الذكر قطع المفاوز والقفا
ر التي تخرج النفس عن جميع متعلقات الجسم كخروج الشعرة من العجين
وليس يدرك ذلك بسائر أعمال البر جهادا أو غيره لكن من سائر أعمال البر ما
يؤذن بخلاص النفس وتصفيتها فللذكر خاصية في ذهاب الأثر إذ لا يكون
تخليص إبريزها من كدرات أوهامها وآثارها إلا بتصحيح الذكر فهي
لذا للذكر اختصاصا عجيبا في طهارة النفس الطهارة التامة
وتصفيتها التصفية العامة حتى تصير لها الطهارة صفة ذاتية وغير
الذكر قد يبقى معه من علل النفس ما هو حجاب عن الله وإن كان خفيا وقد
تقنع النفس بذلك الخفي وتحمل لأجله المشاق وتفتح المغالق من
الطاعات راضية بذلك لأن إخراجها عن جميع هواها البلاء العظيم لأنه هو
وراءه من المعارف الإلهية والأسرار القدسية والحكم الربانية ما تقر به
الأعين وتنشط به الأرواح وتذهب به الأحزان فلا مخلص من علل النفس إلا
بالذكر وبيان ذلك أن العبد إذا داوم على الذكر حتى انطبع معناه في النفس
وقام بها فإن النفس تنقلب إلى مقتضى الذكر منصبغة بمعناه وإن كانت الأذكار
كلها مختلفة المعاني فلكل ذكر اختصاص بصفة حميدة فما كثر تحلى بها
النفس وتتزكى عن أضدادها فلأن الأذكار تصفي النفس من كدراتها
وتخلصها من عللها حتى تطمئن في الغاية فلا تجد أنسا بغيره قال الله تعالى
يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي
وادخلي جنتي وليس المراد من الذكر هنا دورانه على اللسان فقط لأن ذلك
المراد منه تلقح معناه بعين الفكر حتى ينطبع معناه في النفس فيتحلى
به وتتصف بمقتضاه اتصافا ذاتيا أو كالذاتي وقد نبسط الكلام في
هذا المعنى بعد بحول الله تعالى حتى يظهر لك بالبرهان أن الذكر يجرد
النفس عن كل خلق ذميم ويحليها بكل خلق حميد وهذا أمر يصعب

Copyright © King Saud University